

بجماليون

تحية الطاب - وعرضه للكتاب

للأستاذ تفرى شهاب السعيدى



جاء كتاب توفيق الحكيم الجديد في شكل حوار لأبطال
بمنهم من أساطير اليونان ، وابتدع لهم من خياله الخصب
عبارات ذلك الحوار ، وهيا لهم جوارزياً يصلح لهم ، وتتناوبهم
فيه العواطف والمشاعر

ما الحياة ، وما الفن ، وما ميزان الحكم عليهما ؟ وما المرأة ،
وما الرجل ، وما وجه الفاضلة بينهما ؟ وما فكرة الآلهة والمخلوقات
وما مقاييس الأحكام على الأمور عندهما ؟ ما الخلود ، وما الفناء ؟
وما العقل ، وما الجنون ؟ ما هي الحكمة ؟ وكيف يوصف
وتعرف وتقدر ، وما البطش بالقياس إليها ، وكيف يكون اتقاؤه
والحذر من التورط فيه ، وهل إلى ذلك من سبيل ؟
وما هو الجمال وما هو الحب ؟ وما مقدار لصوقهما بالحياة
واتصالهما بها ، وهل هما وقف عليها ؟

تلك - ومثلها أكثر منها - أسئلة البشرية الخالدة التي
صرت بكل فكر ، وطلبت أجوبتها من كل حكيم ... وما دام
البشر محدود القوى بالنقص والفناء ، فإنه سيفتن في التسأل
والأجابة ، وفي الأخذ والرد ، والإقناع والافتناع ، كل هذا
تطميناً لفضول القوى العاقلة التي تثيرها في نفسه مشاهد
الكون !

... أما من الفن والحياة ، فهما لدى توفيق الحكيم فكرتان
إحداهما تتم الأخرى لإبداع الكمال المطلق الذي يتخيله
في أذهانهم أرباب المثل العليا في الحياة ، وهما من أجل إيجاد
هذا الكمال يبنين أن يكونا متلازمين تلازماً يضيق عنه إدراك
البشر المحدود ؛ ومن هنا تبدأ عقدة القصة الفلسفية في الظهور :
فصانع التماثيل (المثال) « بجماليون » رجل فنى نزاع إلى الكمال
المطلق ، ولكن نزوعه هذا نزوع يكتنفه الغموض ، لأنه

لا يدري به ولا يدري كيف يستقيم له هذا الكمال : هو يريد
الحياة ، لأن في أعماق نفسه شعور الإنسان الحى الذى إذارتنا
إلى غاية نفسه الحية ألفاها متمثلة في الجسم النابضة عروقه بالحرارة
والحياة ... وهو يحب الفن لأن في طبيعته قسماً من عبقرية
الخالقين المبدعين ... وفي سريرة نفسه الصافية التي مزجت قوة
الإبداع بجمال الحياة ، استطاع أن يجمع بين التقيضين ؛ وإلى
ذلك توصلت روحه ؛ ولكن عقله - وهو بشرى محدود -
لم يهتد إلى سر التوفيق بين ما يقع تحت فهمه من تناقض ظاهر
في فكرتى خلود الفن وزوال الحياة ، وبين طائفة روح
« بجماليون » ونفسه إلى هذا التنافر الين الواضح ... وفي هذه
المرحلة من القصة ، تصل الفكرة الفلسفية إلى أبعاد أغوارها ،
وتبدو عقدة الرمزية فيها رائحة الجمال ، تمثل أروع تمثيل وأصدق
ما يقوم من خلاف بين العقل في حدوده المادية من جهة ، وبين
الروح والنفس في جوهرهما المتجانس الموحد من جهة أخرى .
وعلى قدر سعة اختلاف النظرتين ، وبمقدار تصور العقل عن فهم
ما تشمله الروح من آفاق ، وما تصل إليه النفس من حقائق ،
يشدد الغموض على المثال البطل ، ويشدد كرب نفسه ، وتنشأ
هموم الغم والمعيش في المجهول ... ولا يدرك هذا الألم النفسى
المائل الناشئ بين العقل والروح عن اختلافهما في الفهم
واختلاف طبيعتهما في شمول الأشياء والنفوذ إليها ، إلا عبقرى
كالبطل المثال ، أو عبقرى كالبطل الكاتب الحكيم !

وإذا عرفنا بعد هذا أن العقل هو الحكم في هذه الخصومة
التي بينه وبين الروح عرفنا شقاء هذا البطل الشاب « بجماليون »
ومقدار الحيف الذى لحق روحه الشاعرة وقواه المبدعة وصفاء
نفسه الجليل !

قال العقل^(١) : « قوة الفن ! وما قوة الفن تلك التى يستطيع بها
المالك أن يخلق الخالد ! »

وقال الفن^(٢) : « ردوا على عملى ... ردوا على « جالانيا »
كما كانت تمثالاً من عاج ... أيها الآلهة ، دعونى وشأنى ، لنفسى
ومخلوقات نفسى ، ما أنا إلا صنوكم ونظيركم ؛ بل إنى عليكم

اعتبرها جدولين لا يلبثان أن ينصبا في خضم الوجود العظيم ،
وما إذا تمنا عن شيء فمن وحدة متجانسة بنضم إليها كل ما في
الكون والوجود . وإنك لترى ذلك واضحاً متمثلاً في مخاطبة
الجماد بأسلوب الأحياء ، وإنطاقه بما يعرب عن مثل أحاسيسهم
ومشاعرهم . على أنه في هذه المحاولة الناجحة لم يخرج عن كونه
جاء بصورة أخرى للعذاب الذي لقيه المبدع البديع « بجماليون »
حين تعذر عليه أن يمزج جمال الفن الخالد الذي أنطق الجماد به ،
برقة الطبيعة الحية الفانية التي تمثلها جلالتها امرأة سوية الخلفة
رائعة التكوين . ولكن الفرق بين المبقرين : المبقرى المثال ،
والمبقرى الكاتب الأديب ، أن الأول أطاع عقله واحترم مقاييسه
السادية ، أما الثاني فقد استعمار الحول وسيلة إلى إظهار ما يريد
بمظهر يصدق الإعتماد عليه^(١)

أكتفى بهذا المقدار لأسمع رأى الناقد في هذا الأثر الخالد
المجيد . وإذا أذن الصديق في سماع تحييتي وقبول تهنئتي فليسمع
ذلك إذاً متجلياً في قولي إن أثره هذا وإن يكن مصدره الغرب ،
سيرتد بعد أن اتشح بوشاح من عبقرية شرقية إلى مصدره بعد قليل
على قلم ناقل أو أسلة مترجم معجب محب !

لمرعى شهاب الصعدي

(١) ص ٧٨ ، ٧٩ ، ٨٠ ، ١٤٥

سموت ، وعلى قدرتك تفوقت ، فأنتم ما فعلم غير أن أفدتم
الجمال الذي أقت . . . أفدتم جمالي الخالد ، أفدتم جمالي
الخالد .

وقالت الحياة كلاماً كثيراً ولكن على غرار ما نطقت به
قولها^(٢) : « نعم المودة والرحمة . . . أشياء تمطيها الحياة ،
ولا يستطيع أن يعطيها الفن ! »

وقال المثال كلاماً أطول من كلام الحياة ولكن كلمتين
صدرتا منه أدباً فيهما في هذه الخصومة ، وهما قوله في موقف
القارة بين « جالاتيا » سناً و « جالاتيا » امرأة^(٣) :
« كل ما فيك محدود وكل ما فيها غير محدود » وقوله في معرض
الاعتراف بانكساره وخطيئته^(٤) : « الخطيئة التي كُتِبَ على
كل فتان أن يحمل وزرها . . . الافتتان بالنفس ، الافتتان
بالذات ! » ولولا صدور هذين الاعترافين لما حُكِمَ على « بجماليون »
المثال المبقرى الحي أن يموت وعلى آيته « جالاتيا » الخالدة
أن تحطم تحطماً^(٥) !

تلك هي الفكرة الرئيسية التي تقوم القصة عليها ؛ ولكن
ليس معنى ذلك أن الأفكار الفلسفية الأخرى أقل منها روعة
أو أضعف شأنًا ؛ ففكرة الرجل والمرأة والمفاضلة بينهما ، وتمييز
الرجولة بشهامتها على الأنوثة بضعفها ومكرها ، وحبها الإطراء
وأنخداعها به ، وولوعها بالمكابرة ورغبتها في الانتقام ، فكرة
واضحة نامة الوضوح في تصرفات الآلهة « فينوس » وفي هياتها
وكلامها وكل دورها التي قامت به في المسرحية

أحب بعد هذا أن أشير إشارة سريعة إلى فكرة أحسبها
أسمى الأفكار الرمزية التي وفق إليها الأستاذ في هذا الجهد
الرائع الجديد ، تلك الفكرة التي أزال بها الحجاب بين الحي
والجماد ، وسما إلى نوع من الرمزية الحلوية الروحية التي لم تُقم
للفارق العقلي الذي يأبه الناس له وزنًا في التفريق بينهما . بل

(١) ص ١٦٤ (٢) ص ١٤٧ (٣) ص ١٢٣

(٤) آخر الفصل الأخير

إدارة البلديات — المياه

تقبل العطاءات بإدارة البلديات (بوستة
قصر الدوبارة) لغاية ظهر ٣ أكتوبر
سنة ١٩٤٢ عن توريد أدوات مياه
لمجلس المنزلة المحلي وتطلب الشروط من
الإدارة نظير مبلغ ٢٠٠ مليم ٩٧٨٦